

عبد الرحمن شكرى

شاعر نظم كثيراً ، ثم سكت طويلاً . أخرج للناس من ديوانه سبعة أجزاء فى مدى عشرة أعوام ، ثم صمت صمتاً هائلاً مقلقاً أكثر من خمسة عشر عاماً ، ولا يدرى جمهرة الناس لم صمت فلم يعد يهتم بشعره فيهم ؟

أخرج الجزء الأول من ديوانه عام ١٩٠٩ وهو فى العشرين من عمره ، وفى ذلك قال حافظ إبراهيم :

أفى العشرين تعجز كل طوق وترقصنا بإحكام القوافى

ومهما يكن مبلغ هذا البيت من الصحة ، فإن شكرى قد خرج على الناس حقيقة بشيء جديد غير مألوف : خرج عليهم بديوان غريب لم يسبقه إلى الظهور ديوان غريب مثله ، اللهم إلا ديوان خليل مطران الأول ، وفى هذا الديوان تطالع أول ما تطالع قصة «كسرى والأسيرة» وتخرج منها معتقداً أن خليل مطران قد أثر شعره

في الشعراء الشبان ، ثم تطالع بعد ذلك خطرات في المساء وهي
 «مناجاة يوم مضى» وفي هذه الخطرات تتحرر الفطرة الوجدانية
 وتنطلق العاطفة من عقالها ، ولكن الناقد الأدبي يلاحظ على الشاعر
 في هذه القصيدة أنه ينظر إلى الحياة نظرة قاتمة وهو لا يزال في ميعة
 الشباب . ولقد واكبته هذه النظرة في مختلف دواوينه واتسعت
 اتساعاً كبيراً حتى أصبحت من عناصر شعره الأساسية . وهكذا تمضي
 في مطالعة الجزء الأول من الديوان فلا نقع على الموضوعات القديمة
 التي أكل الدهر عليها وشرب ، وملها السمع من كثرة التكرار ، وإنما
 تدهشك الطرافة التي تلمسها في كل قصيدة ، بل في كل فكرة من
 قصيدة ، ويختتم الشاعر هذا الجزء بقصيدة طويلة جداً من الشعر
 المرسل Blank Veres تحت عنوان «كلمات العواطف» . ولعل هذا
 الحدث كان الأول من نوعه في هذه اللغة ، ولعله أثار ضجة وصخباً
 واختلافاً كبيراً . ولقد كان من الصعب على الآذان أن تفهم هذا
 الضرب الجديد من الموسيقى الشعرية ، فكان لها أن تثور وأن تضج .
 والقصيدة بعد هذا مجموعة من الخواطر والعواطف تغلب عليها
 العبرة في بعض المواقف ، وأحب أن أقول إنها ليست في مستوى
 قصائد الجزء بالرغم من الحرية التي أعطيت للشاعر في صوغ
 القافية ، ولست أدري سر ذلك القصور على التحقيق ، وربما كان

منشؤه أن الشاعر ألغى نفسه أمام ضرب جديد من النظم لم تألفه روحه
هو الآخر فاضطرب حتى جاءت خواطره مضطربة كذلك ، وإن كان
في بعضها جمال كثير كما في قوله :

إذا عاث القوى فلا تراعوا فإن الظلم نعش للظلم

ويظهر أن شكرى أولع بهذا الشعر المرسل حقاً ، فإنك تراه في
ختام الجزء الثاني من ديوانه قد نظم في (واقعة أوى قبر) قصيدة من
هذا الطراز ، وكذلك فعل في « نابلون والساحر المصرى » ولقد وفق
شكرى في هاتين القصيدتين توفيقاً لا بأس به ، ومهما يكن من
شئ ، فهو الذى أدخل هذا الضرب الجديد من الشعر في هذه
اللغة ، ووضع الحجر الأساسى له !

وشكرى شاعر محب عظيم الغيرة ، مضطرب الفكر ، منهل
الفؤاد ، كريمة في مهب الريح ، متطير أبلغ التطير ، وكمثل على
ذلك الاضطراب النفسى الذى لاحد له ، قصيدته «جنة الحب
وجحيمه» من الجزء الثالث : ففي هذه القصيدة يقول الشاعر لحبيبه
إنها كل أمانيه فى الحياه ووصلها نعيمه الذى لا يتغى سواه ،
وهجرها الجحيم الذى يصلاه ، ثم يخرج من هذا الحديث إلى قوله :

غداً ينال الممات مَناً فمن دفين ومن رميم
فخففوا هجركم قليلاً فالموت من خلفنا غرم
وكلنا بالحياة صَبٌّ لكننا للردى خصوم !

وهكذا نرى الشاعر يمزج نظره الغرامية بالألم الفكري القاتل !

ونظرة شكرى إلى النساء نظرة مربية ثائرة بالرغم من حبه العظيم
لهن ، ولعل ذلك جاء لتطيره وإرهاق عواطفه وكثرة ما يرين الشك
على قلبه . أنظر إليه يخاطب (الحسنة الغادرة) بقوله :

ولبستِ أهل الحب حلية ساعة أو خلعة أبدلتها ببديل
فإذا نأى لك عاشق أنسيته إن المقيم لديك خير خليل
وحسبت غدرك كافلاً بشفائه من دائه . والغدر غير كفيل

فهنا عاشق يئن ويتوجع لغدر حسنة الرقطاء . . . ثم اسمع له في
« قبلة الزوجة الخائنة » :

قد قبلتني قبلة مرة كأنها من حمة العقرب
تغيب أنى راتع غافل ألد ما تدنيه من مأرب
ماء من الحسن رويانا به عاد كوعد البارق الخلب

وفي هذه الأبيات تلمس غصبة الشاعر وثورته العاصفة وجنونه

الفكرى . ولست أدري مَنْ غير المرأة يحرك عواطف الشاعر وبذهله
عن كل شيء ؟ وهاك قصيدته « الزوجة الغادرة » من روائع الشعر
العاطفي المصوب في القلب القصصى . ولقد كنت أحب أن أنقل
منها أبياتاً ولكننى آثرت الكفّ عن ذلك حتى أشوق القارئ إلى
مطالعها في الجزء الثالث من ديوان شكرى .

وهناك سوى هذه القصائد كثير من الشعر مبثوث في أجزاء
الديوان يُظهر لنا في جلاء ووضوح نظرة الشاعر إلى المرأة ورأيه فيها .

° ° °

أنغم شكرى بالطبيعة غراماً عظيماً . فأنت تراه يصور لك
مفاتها في قصائده الكثيرة في دقة عجيبة . تدفعك إلى العجب .
وهذه قصيدته (وصف البحر) من مفاتن شعر الطبيعة الممتزج
بالعواطف النفسية ومنها يقول :

وربّ سفين يقرع النجم مجدها

تقاذفها مستوفز اللج غامر

يروّعها في كل (هوجاء) موعد

ويسعى لها قبر من الماء سائر

فليس الغمام الغمر إلا رياحها

وما المرسلات الهوج إلا الهوامر

وما ذلك اللج الذى فى سماءها
 بأهدأ من لج نمته الزواجر
 إذا ذكر الملاح زوجاً وصية
 طفى شجن فى رجل الصدر فائر
 ينفس عنه بالغناء وكفه
 تقيم على جفن به الدمع حائر
 وتذهل عن مهد الوليد فتاته
 إذا ما رمتها بالوعيد الزماجر
 وما هى إلا دولة طار شأنها
 فأوحت إليها بالقضاء المقادر
 وما هى إلا صولة ثمت انجلت
 وأكبر غرقاها المساعى البوائر

فى هذه القصيدة امتزاج الأوصاف الطبيعية بالتصوير العاطفى
 الإنسانى ، وشكرى لا يكاد يتناول صورة من الصور الطبيعية دون
 أن يمتزج بها الامتزاج الكلى .

وهو فى « عابدة الشمس » يصف تلك الزهرة الجميلة وصفاً بارعاً
 قد استند إلى النظرة العلمية الصحيحة فيقول :

تديرين نحو الشمس وجهاً كأنما
ترينا بوجه الشمس ماكتب الدهر
فما حسرت عينك من طول رقبة
ويارب ترصاد ينوء به الصبر
أتبغين في تلاحظها شكر نعمة
هي النور لم يحسب عليك له أجر
أتسفيك من أضوائها بلواظظ
وللشمس لحظ لا بطل ولا شزر

ثم يمزج الشعور النفسى بالتفسير الطبيعى حيث يقول :
إذا غربت أرخيت أجفان عاشق
يتاجى حبيباً دونه للدجى ستر

وكذلك هو فى مقطوعته « عيون الندى » يمزج الحب بالطبيعة إذ
يقول :

عيون الندى كوفى على الزهر إنه
بطل على العشاق منك ويشرف
فليس عيون الغيد أشعلها الصبي
بأروع في لألائها حين تعطف

ولا أطفأت منك الغزاةً رونقاً
 على الروض جذلان المدامع يذرف
 ولا زال مكسال النسم إذا سرى
 على روضه يحنو عليك ويرؤف
 يهزك هز الظئر مهد وليدها
 فلا المهد يشكوها ولا هي تعنف
 وما زال غريد العصافير واقعاً
 على الزهر يحسو منك رياً ويرشف
 وفي قصيدته «أنفاس السحر» صورة طريفة للطبيعة في هذا
 الوقت ، ومنها يقول :

وكم في الدجى من بديع الغرر	مناظر تصبى الفتى ما نظر
وميض النجوم بوجه الغدر	ولون الدجى حول ظل الشجر
نظرت إلى النجم لما سفر	ثقل النعاس بعيد النظر
سوية للقلب فيها عبر	يهيج الخيال بها والفكر
فياليلة من ليالى السمر	تريق علينا ضياء القمر
تطيب الأمانى بها والذكر	وتنشقنا من نسيم السحر
جنينا من الحب خير الثمر	ونلنا من اللهو أقصى وطر

وعندى أن هذه المقطوعة الغنائية من أفن أغاني الطبيعة في الشعر العربي ، وهى حرية بأن تلحن تلحيناً بارعاً يتناسب مع روعتها .
ولقد لاحظت أخيراً أن بعض الشعراء الشبان قد تأثر بها فنظم في موضوعها وبحرها وقافيتها مقطوعة أخرى عن الطبيعة الريفية لا تكاد تخرج معانيها وصورها عن معاني هذه المقطوعة وصورها البارعة حقاً .

ولقد عرفنا شكرى متجههم الوجه حزين النفس متقبض الفؤاد ينظر إلى الدنيا والكائنات بمنظاره الأسود ، بيد أن حبه القوى للطبيعة يجعله فى بعض الأحيان ينظر إلى الدنيا نظرة المستبشر الطروب ، وهذا هو فى قصيدته «الحسن مرآة الطبيعة» يقول
لحيته :

قم بنا نخلس الزهور من الحب	ونسقى الرحيق والسليلا
وأرى البدر فوق وجهك يابد	ر نعيماً جمّاً وحسناً صقيلا
قم بنا نعشق الحياة حبيبي	لا تدعى متيمّاً مخذولا
أنت مرآة ما ينجى به الكو	ن من الحسن بكرة وأصيلا

أجل ، هو يعتقد ان المرأة إن هى إلا مرآة لكل مظاهر الوجود ،
وصور الحياة ، ثم اسمه يقول بند ذلك :

فأرى في الصباح منك ضياء
 وأرى في المساء منك ذبولا
 وأرى فبك للظهيرة حرا
 وفتورا لذّا وظلا ظليلا
 وأرى بك نعمة كليالي الصيف
 حيث النسيم يسعى عليلا
 وأرى منك في الخريف شيئا
 ثمرا يانعاً وزهراً جميلاً
 ثم لا يلبث حتى يتحول إلى نظرتي السوداء القائمة التي سبق أن
 ألمعنا إليها فمروح يقول :
 كم جميل يزهي بحسن عمم
 حجب الموت لحظه أن يصولا
 ذو بهاء ونضرة وضياء
 منع الموت أمره أن يطولا
 أكلته الديدان ميتاً وقد كا
 ن يعاف العناق والتقبلا

وهذه الالتفاتة تشعر المرء بدناءة العيش وحقارة الدنيا ، وهي

وإن كانت لا تحوى فكرة جديدة ولا تضم صورة غير مألوفة إلا أنها تصور لنا الاضطراب الفكرى الذى يسود فكر الشاعر ويغضى على مشاعره جميعاً ، فهو يتبدى قصيدته فى ثوب الاستبشار والطرب ، ثم يحتتمها فى ثوب البكاء والحداد الكثيب ! ويعجب المرء كيف تتحول المشاعر فى سرعة غريبة هذا التحول العجيب ولكنه شكرى الذى يحدث منه ذلك ، وشكرى عالم آخر من الإحساس والعواطف لا يخضع لقوانين البشر المألوفة ولا يتفق مع سواد الناس فى طرق الفكر والتخيل والشعور !

ويبدو لى أن إرهاف الإحساس عند شكرى قد شارف به الجنون ، فهو فى قصيدته (بالله ما تفعل لو بلغوك) تنتفض روح الشاعر انتفاضة شاملة فيها رعب وفيها هلاك ودمار . اسمعه يقول فى ختام هذه القصيدة مخاطباً محبوبه :

بالله ما تفعل لو بلغوك	أنى أسعى عامداً للهلاك
لما مللت العيش من بعدكم	سقانى السم الذى لاسقاك
جرعت منه جرعة كأسها	يروى صدى القلب الذى قد هواك
يا عجباً لو كنت لى راحماً	أحرقه الرحمة تكوى حشاك ؟
إضحك ولا تحزن لما نابى	الجسم والروح جميعاً فذاك !

ودواوين شكرى كلها غاصة بهذه الحيرة المضطربة التي تصدر
عن قلب مبلبل ووجدان متطير . ولعل شكرى قد ربح ربحاً عظيماً
من وراء هذا التطير الذى ملك عليه مشاعره جميعاً ، ولكنه كذلك
قد بعث فى شعره شيئاً من الإضطراب والغموض فى بعض الأحيان .

• • •

وكان نتيجة لهذا التطير الغريب أن أولع شكرى بالأفكار الشاذة
السوداء ولعاً عظيماً ، ولعله الشاعر الأول الذى نظم فى موضوعات
الشذوذ نظماً قوياً محيطاً . فهو فى قصيدة « الجبال والموت » يفرق من
شبح الفناء ، ويروح بقول وكأنه خبر عالم الموت والفناء حقاً :

فرايت الثياب فوق أكفاناً وحولى جهاجماً وعظاما
ورأيت الظلام بالنظر الآمل أبغى من الظلام ملاما
إن هذا الظلام باب إلى الموت نراه وراءنا وأمامنا

ويشتد هلعه من شبح الموت فيروح يناجى حبيبته الميتة فى لفحة
أسيفة :

عانقبنى قرب صدر خفوق ظل يخنو عليك عاماً فعاما
واجعلى ساعدك عقداً لجيدى واجعلى معصمك فيه تماما
عانقتنى فعاتق الداء جسمى وكأن الخيال صار راما

ورأيت العظام تعرى من اللحم (م) وقد فارق البهاء العظاما
أبعدى عن مشمى النفس المر فقداً شممت منه البشاما
أبعدى فاك ذلك عن شفى الظمأى (م) فقد أبدل الرضاب لغاما

وينتم القصيدة بهذا البيت الرائع :

بينما أنت كالضياء بهاء إذ تعودين رمة تتحامي

وهو فى قصيدة «صوت الموتى» فى خيال وهجس ووهم

كثيب اسمعه يقول :

ألا إن للأموات صوتاً كأنه

خريف المياه الجاريات على الصلد

ويحكى حفيف الغصن فى لبن وقعه

وطوراً كأصداء الطبول على بعد

ويعول أحياناً كإعوال ثاكل

رمتها صروف الدهر فى الولد الفرد

ين أنين الريح عند خفوتها

ويعوى عواء الذئب فى المهمة القفر

ويصرخ أحياناً فيحكى صراخه

صراخ العباب الغمر فى لجج البحر

يثن أنين الليل إن هداً الورى
وطوراً له صوت كحشرة الصدر

ويكاد شكرى يختص بالموت والموتى فى شعره دون سائر الشعراء .
فلقد بلغ فى تصوير الموتى وأحاسيس الأحياء حياتهم مبلغاً عظيماً من
صدق التعبير وقوة البيان . ولشكرى غير ما عرضنا من قصائد
الموت ، قصائد « ضوء القمر على القبور » ، و « الموت والنخيل » ،
و « النساء فى الحياة والموت » وسواها كثير ، وكلها من إرهاب
الإحساس وبلبلة الوجدان وإدجان الخواطر بحيث لا تفرق عن اللون
الذى عرضناه كثيراً .

• • •

يبقى بعد هذا الجانب الأهم فى شاعرية شكرى ألا وهو الجانب
الرمزى ، وإبنى أعده المؤسس لهذا المذهب فى شعر هذه اللغة
الحديث .

انظر إليه فى قصيدته « معان لا يدركها التعبير » إذ يقول :

كم من معان يود لو صاغها المر
وحلى بها وجوه البيان

هى ملء الضمير لم يبلغ اللفظ
 حظ مداها ولم تدها المبانى
 كلما رام أن يعبر عنها
 أنفت أن تنال بالآذان
 فهمى عذراء لا تمنح لئاء
 وهى عذراء لا تلين لدانى

إلى أن يقول فى ختامها :
 إن وأد الأبناء أهون خطباً
 وأثاماً من وأد تلك المعانى
 ذل من خاف لومة الناس فى قو
 لة حق فلج فى الكتمان

وهو كذلك فى قصيدة « الحاجات المترجة » تحتلج فى نفسه أمور
 غامضة يحاول التعبير عنها فلا يكاد يبلغ غرضه إلا عن طريق الرمز
 والإيهام ، فهو يقول :

كم حاجة للنفس ممزوجة بحاجة الجسم كخمر وماء
 كذلك الحب به شهوة الجسم ورى للنفوس الظماء
 ونفحة الزهر بها شهوة الأنف إذا سبقت بريح رخاء

إلى أن يقول :

والحس باب النفس كم والج
منه إليها بالحجى والغباء
إن عناء الجسم في فعله
يغرى بنفس المرء برح العناء
ورب داء والج جسمه
يصاب عقل المرء منه بداء

وله في «دفة قديمة» ملقاة على شاطئ البحر صورة رمزية حالة
يقول فيها :

لقد جار الزمان عليك حتى
حكيت عزمة الرجل الضعيف
تصرفك الأكف وكل عزم
يؤثر فيه تصرف الصروف
وللأهواء في الآراء فعل
كفعل فيك للهم المخوف
وما هجروك من عبث ولكن
(م) غايات الوسائل في الخوف

كذاك الناس مثلك والليالي

وسائل للقضاء وللصروف

كذاك العيش عيش الناس طرًا

وميلتهم إلى الأمل الصدوف

وهكذا عبد الرحمن شكري شاعر رمزي غامض الصور في الكثير من شعر الحالات النفسية ، وأكبر الظن عندى أن اضطراب نفسه وتقلقل خواطره هما السبب الأول في غموضه وجنوحه إلى الناحية الرمزية ، ولكنه على كل حال لا يغرب كثيرًا ، ولا يتعب الأذهان ولا يرهقها بحل الرموز المهمة كما يعتمد إلى ذلك بعض شعراء القرنجة المعاصرين ، وإنما هو يحاول التوارى بالصورة التي في ذهنه عن العقول بعض الشيء ، ولكنه على كل حال لا ينجفى عنها تمامًا . وهو في قصيدة « كلمات نفس » يصور لك نفسه صوراً غامضة ممتزجة في قوله :

طورًا أكون كبعض الحبا	لج به العاصف النائر
وطورًا أكون كذات القلو	ع هم بها الهائج المائر
وطورًا أكون كأرجوحة	يرجرجها طفلها الجامح
وطورًا أكون كغصن الجنى	يميل به الثمر الصالح !

فهذه القلقة الفكرية الصريحة من شأنها أن تبعث على الغموض في التعبير ، وأحسب أن عبد الرحمن شكرى شاعر رمزى بطبعه وليس إلى التعلم والثقافة الرمزية سبيل إلى عقله الميال بطبعه إلى الشعر الرمزى . وهو فى قصيدة (الصنم المكسور) يعطى صورة رمزية للحب الضائع المفقود فى قوله :

عابد ييكى على صنمه	عاف ورد العيش من سقمه
عابد من حسنه صنماً	خال كل الفضل فى صنمه
حطمته قولة فهوى	كحطيم الجص منهشمه
كنت لى حلماً ألوذ به	خاب من ييكى على حلمه !

إلى أن يقول :

كان قلبى معبداً لكم ويح قلب ريع من صنمه !

* * *

ليست هذه كل مظاهر شاعرية شكرى ، ولكنها أثارة منها ، أما شاعريته فتحضن الحياة جميعها ، وتصور الوجود بأسره ، لأنه شاعر عبرى ، لا يقف دون التعبير عن شعوره حيال الكون كله . وهو وإن كان برز حقاً فى شعر الموت والجنون وفى الشعر الرمزى إلا أن ذلك لا يعنى أنه قصر فى قصائده العاطفية أو التصويرية

أو الطبيعية ، فشكرى فى كل باب شرف أى شرف ، وكفى أنه فى قصيدته (أبى المول) أتى بصورة بارعة استفاد منها المرحوم شوق بك عندما كتب قصيدته عن أبى المول فيها بعد ! ولا يعيب شكرى شىء سوى عدم الاحتفال بالموسيقى الشعرية فى بعض الأوقات وعدم العناية باللفظ ، وهو ما يعاب على أكثر المجددين .

نحن نناشد شكرى أن يخرج عن صحته الطويل وينشر شعره الذى نظمه منذ خمس عشرة سنة تقريباً . ونحن على يقين أنه مجموعة بارعة من الشعر القوى الجديد الذى سينتدى النبضة الشعرية الحاضرة دون مرأه^(١) .

(١) استجاب شكرى لهذا النداء وانطلق ينشر بعد صدور الطبعة الأولى قصائده ومقالاته وأبحاثه القيمة فى (الرسالة) و(أبوللو) وسواهما من المجلات الأدبية .